# ماهية ومرتكزات البحث العلمي

**د. أحد قراملكي**

**الكلمات المفتاحية:** أحد قراملكي، ماهية ومرتكزات البحث العلمي، البحث، الدراسة، المعلومات، المعالجة، التنظيم، الإبداع.

**تمهيد**

يتطلب نجاح أي لون من التعامل مع موضوع معين، الإحاطة به أولًا حتى لو كان ذلك على نحو إجمالي. فلو لم يدرك المعلم مثلًا ما هو التعليم وإلى ماذا يهدف، فإنه لن يتمكن من مزاولة هذه المهنة فضلًا عن النجاح فيها. وقبل أن يكون البحث العلمي بحاجة إلى المناهج والأدوات فإنه يتوقف على ما يمتلكه الباحث من تصور كامل حول مهمة البحث، لأن الباحث سيتعامل مع أدواته ومناهجه في ضوء التصور الذي يحمله عن طبيعة البحث. ولذلك لا بد أن نتساءل في بداية الأمر: ما هو البحث وما هي مقوماته ومرتكزاته؟

وفي إطار التساؤل حول ماهية البحث، نتولى دراسة الغايات التي يمكن أن تُترقب وتُنتظر من الباحث ومشروع البحث، الأمر الذي يجعلنا نحدد على أساسه الفرق بين البحث العلمي والبرامج التعليمية والدعائية أو التبشيرية. والسر في حاجتنا إلى تعريف البحث، هو ضرورة إعادة تحديد طبيعة المشروع البحثي وتمييزه عن الأمور التي تلابسه. إذ هل تعد كل دراسة بحثًا؟ ما هو الفرق بين البحث والدراسات اليومية المشتتة وذات الطابع الفردي؟ ما هي ميزات المشروع البحثي التي تجعله يتباين مع شتى أنماط الدراسة الأخرى؟ هل يدخل في حقل الأبحاث مجرد جمع المعلومات وتصنيفها؟

يطلق مصطلح الدراسة على كثير من الأنشطة التي تتباين بدرجات مختلفة، فنجد مثلًا في الاجتماعات واللجان التخصصية كمجلس الإدارة في إحدى الشركات أو مجلس الإدارة في جامعة معينة، أنهم يقولون: "إن الطلب الفلاني بحاجة إلى دراسة" ثم يجري تكليف أحد الأعضاء بتولي مهمة دراسة الطلب المذكور.

ثمة نماذج أخرى لاستخدامات هذا التعبير، من قبيل أن نقوم بدراسة تسبق عملية إعداد مقرر دراسي أو مقرر ثانوي، فنمارس لونًا من الدراسة بهدف إعداد الموضوعات التعليمية. أو أن يعمد عالم إلى مراجعة إحدى الموسوعات استعدادًا لكتابة مقالٍ ما، أو عندما يأخذ خطيب في المطالعة كي يعد موضوع محاضرته أو خطابه. لو لاحظنا ما يقوم به عالم يعتزم معالجة عدد من القضايا، فيخطط لدراسة منظمة ويتولى تنفيذها، فإننا نصف هذه

الممارسة بأنها نشاط بحثي. نتساءل: على أي أساس نستخدم تعابير البحث والدراسة؟ هل ثمة دلالة واحدة تشمل حالات الاستخدام بأسرها؟ هل نمتلك مبررًا لإطلاق سمة الباحث بسخاء على كل من يمارس لونًا من ألوان الدراسة؟

**أهمية تحديد المفهوم**

ينبغي قبل تعريف البحث وتحديد مفهومه، أن نبين أهمية المنهج بشكل عام وما يلعبه من دور في تحديد المفهوم وتعريفه[1]. يتعامل بعض الباحثين مع التعريف بمنهج مفرط في التشدد، بينما ينهج البعض الآخر طريقًا متساهلة تفرّط في ضوابط ذلك. فالأسلوب الأول يؤكد على أهمية التعريف ودوره كضابطة صارمة ويأخذ في التدقيق وإيراد النقاشات الموسعة خلال تعريف المفاهيم، على نحو يجرد التعريف من طابعه كأداة ووسيلة ويحوله إلى هدف في حد ذاته. إن الإسراف في نقد التعريفات يحول دون تناول الموضوعات والجوانب الأخرى، الأمر الذي يؤدي إلى فقدان التعريف دوره كإضاءة ومقاربة في سائر الموضوعات.

وفي مقابل ذلك نجد الأسلوب الثاني يتخلص من السيء ليقع فيما هو أسوء منه، فيتجنب أي شكل للتعريف ولا يولي ذلك أهمية، فيأخذ في تقييم الموضوع وإصدار الأحكام عليه دون بلورة تصور محدد حوله، ومن خلال مفهوم غامض بنحو وآخر، أو على نحو معكوس أحيانًا.

يتطلب الأسلوب المعتدل أن نولي أهمية للتعريف بوصفه إضاءة في شتى الموضوعات، تتولى تحديد الإطار النظري للبحث، وأن نتجنب النقاشات غير المجدية في نقد التعريفات المطروحة، فنعمد إلى تحليل تصورنا حول الموضوع بهدف العثور على محددات تميزه وتخلصه من الغموض.

وكما تقدم في المدخل السابق فإن معالجتنا لتعريف البحث ومفهومه تهدف إلى تمييزه عما يشاكله أو يشابهه من أمور، ولا نريد بالتمايز هنا تحديد جميع مستويات التباين، بل تحديد جانب من المستويات تلك والعثور على المستوى الجوهري للتباين بين البحث والدراسات المشتتة الرتيبة، إلى جانب تباين البحث مع البرامج التعليمية والدعائية التبشيرية، وهذا ما يمثل الغاية الرئيسية في حديثنا حول التعريف.

**نماذج لتعريفات (البحث)**

أسهب العلماء في حديثهم حول ماهية البحث[2]، ومن المفيد أن نتدبر في النماذج التي قدموها في تعريف ذلك وأن نتساءل عن مدى جدواها في تمييز البحث عن غيره.

يرى البعض أن البحث مجموعة من الخطوات المتخذة تستهدف اكتشاف جانب من سمات العالم الحقيقي[3]. وقالوا كذلك ان البحث نشاط منظم ينتهي إلى اكتشاف قضايا معينة، سواء كانت معطياته أسسية

---

[1] – راجع لمزيد من التفصيل حول ذلك: الفصل الخامس من الكتاب الحالي.

[2] – يراجع: سرمد وآخرون. روشهای تحقیق در علوم رفتاری (مناهج البحث في العلوم السلوكية). تهران، 1378، انتشارات آگه.

[3] – مصدق. مقدمه ای به روش تحقیق (مدخل الى منهج البحث). كرمان، مؤسسه های مدیریت كرمان، ب. ت. ج1. ص 93.

*(fundamental)* أو وظيفية *(applied)*، وبكلمة أخرى فهو نشاط منظم مسجل يؤدي إلى الكشف عن الحقائق ومراكمة المعرفة[4].

والبحث في تصور آخرين هو معالجة للظواهر تتميز بالتنظيم وتخضع للسيطرة، كما تتحلى بطابع نقدي تجريبي، ويجري التعامل مع مستويات العلاقة المحتملة بين تلك الظواهر في ضوء النظرية والفرضية[5].

يحاول جون ديوي تقديم:"مفهوم عام للبحث يجري تعميمه بالكامل ويمكن تقديمه بنحو منطقي" ويقول: إن البحث عبارة عن فعل خاضع للسيطرة أو موجه، يتولى تحويل موقف مبهم غير محدد إلى موقف يتسم بوضوح وثبات كامل على مستوى خصائصه وعلاقاته، وبنحو يصبح في ظرف تتحول خلاله عناصر الموقف أو الحالة السابقة الأصلية، إلى كلٍّ متوحد[6].

## ستة مرتكزات للبحث

لا شك أن ثمة لونًا من المخاطرة في اقتراح تعريف معين ولا سيما في موضوع يمثل هاجسًا للعلماء في شتى الاختصاصات والمجالات. غير أن تمييز البحث عما يشابهه ويشتبه به من أمور، يتوقف على الإحاطة بالعناصر الرئيسة التي يتكون منها

فالبحث هو عملية تبدأ بالمعلومات وتنتهي إلى اكتشاف جديد، بينما يتسم الانتقال من المبدأ إلى المنتهى بخضوعه إلى نظام محدد.

إن ملاحظة البحث بوصفه خطوات عملية، يكتسب أهمية بالغة فيما يتصل باحتياج مراحله وخطواته المتعددة، إلى الأدوات والمناهج، إضافة إلى الإحاطة بالأساليب والمناهج.

يمكن القول في ضوء التعريف المتقدم بأن البحث يتقوم بستة مرتكزات نتولى إيضاحها فيما يلي على نحو الإيجاز:

### 1- المعلومات

المعلومات هي نقطة البداية في البحث ومادته الأولية التي يصبح بدونها عملًا بلا جدوى. ويلعب نوع المعلومات دورًا مهمًا في تشكيل نتائج البحث كما أن المعلومات الهزيلة تؤدي إلى عقم في نتائجه، بينما تكون المعلومات الرصينة الواسعة سببًا في إنتاج بحث مفيد وهي عنصر يحدد حجم فائدة البحث وجدواه. ويتطلب نجاح مشروع البحث وصولًا إلى المعلومات وتفننًا في انتقاء ما هو ضروري، مما يمثل واحدًا من شروط البحث الناجح (لا شرطه

---

[4] – سيف نراقى، ونادرى. روشهاى تحقيق در علوم انسانى (مناهج البحث في العلوم الإنسانية). تهران، ناشر مؤلف، 1359. ص11-12.

[5] – أنفرد كلينجر. مبانى پژوهش در علوم رفتارى (أسس البحث في العلوم السلوكية). ترجمة: حسن باشا شريفى وجعفر نجفى زند. تهران، آواى نور، 1374، ج1، ص31.

[6] – جون ديوي. منطق تئورى تحقيق (المنطق النظري للبحث). ترجمة: علي شريعتمدارى. تهران، دانشگاه تهران، 1369، ص134.

الوحيد). إن أهم نقطة فيما يتصل بالمعلومات هي كونها مناسبة للبحث، ويجدر الانتباه إلى الملاحظات التالية والاستعانة بها في انتقاء المعلومات المناسبة.

### أ: معلومات، لا معطيات

ينطلق البحث من المعلومات التي جرى تحليلها ومعالجتها *informations* دون المعطيات أو البيانات الخام *data*. وثمة تأثير كبير يتركه انتقالنا من المعطيات إلى المعلومات، على جدوى البحث وفاعليته. ويدلل هذا التفاوت على أن جمع المعلومات لا يمثل عملية ميكانيكية سهلة، بل هو أمر يتطلب متابعة ممنهجة وأدوات خاصة تتيح للباحث الوصول إلى المعطيات وتحويلها إلى معلومات.

### ب: المعلومات ذات الصلة بالموضوع

سيضطرب برنامج البحث ويختل حين يتضمن معلومات لا صلة لها بالموضوع أو تتصل به على نحو ثانوي، إضافة إلى أن غياب المعلومات ذات الصلة الوثيقة بفرضية البحث يتسبب في تقليص جدوى البحث إلى حد كبير[7]. ومن الأخطاء الرئيسة في منهج البحث اللجوء إلى طرح موضوعات لا تربطها آصرة وثيقة بالمحور الأساسي أو تلك التي يتظاهر الباحث بأنها ذات صلة بموضوعه، مما يكون في الغالب بدافع تضخيم حجم البحث وحشد أكبر عدد ممكن من المصادر والمراجع في إطاره. لنفترض على سبيل المثال أن طالبًا يفكر بالحجم الذي لا بد أن تكون عليه رسالته، فيأخذ في اللجوء إلى طرح مختلف الموضوعات والخوض في شتى النقاشات بذرائع متنوعة، ولنا أن نتصور حينئذ حالة الفوضى والحيرة والأخطاء التي سيعانيها البحث في سياق معالجة المعلومات.

إن تحديد حجم صلة المعلومات بمحور البحث، بحاجة إلى وجود خبرة وتراكم في المعلومات إلى جانب تعامل الباحث مع فروع علمية متعددة في إطار الدراسات "البيتخصصية"[8]، وقدرته على التفكير المنهجي داخل منظومة متسقة. الأمر الذي يعني أن انتقاء المعلومات خاضع لعقلية الباحث، فالمعلومات التي تبدو لدى أحد الباحثين متناسقة وذات صلة بالموضوع على نحو يدفعه إلى تسجيلها واستخدامها، ربما كانت هي نفسها في تصور باحث آخر، معطيات لا صلة لها بالبحث حيث يعمد إلى إهمالها. نجد مثلًا أن المعلومات التي تضمنتها دراسة قاسم غني حول حافظ الشيرازي، تتباين للغاية مع تلك التي يتعامل معها غيره من دارسي حافظ الشيرازي[9].

---

[7] – لمزيد من التفصيل لاحظ: الكتاب الحالي، الفصل الثالث.

[8] – يستخدم المؤلف تعبير (ميان رشته اى) كمعادل فارسي للمصطلح الانجليزي *Interdisciplinary* وهو وصف لمنهج في البحث او لنوع من الدراسات. ويستخدم بعض الأكاديميين تعبير (بينية التخصصات) في الدلالة على ذلك. وهذا نظير كلمة *Multi disciplinary* = متعدد التخصص. يقال مثلًا ان الجامعة الكذائية تتميز بتعدد التخصصات. ولعل من المناسب هنا اجتراح مصطلح (بيتخصصي) على غرار *Intersubjective* التي تترجم إلى بيذاتي، وهكذا (بينصّي) وسواها. (المترجم).

[9] – شمس الدين حافظ (1325– 1390): شاعر فارسي. يعتبر أشهر شعراء الفرس الغنائيين. ولد في شيراز (ولذلك عرف بحافظ الشيرازي) وعاش معظم سني حياته فيها، ترجمت آثاره إلى كثير من اللغات العالمية. (المترجم).

سيكون الباحث أوفر حظًا في جمع المعلومات وتحديد مدى صلتها بموضوعه، كلما كانت أفكاره أكثر تعقيدًا وأغزر على مستوى معلوماته المتنوعة. إن البحث لا بد أن يكون مسبوقًا بالتعلم ويكتسب الباحث خبرات كهذه خلال ما يتلقى من تعليم.

**ج: معلومات كافية ومتكاملة**

لا يمكن أن نمارس التحليل آو نتولى معالجة الموضوعات متجاهلين حجم المعلومات المتوافرة لدينا، بل لا بد أن تتوفر لدينا معلومات وافية ومتكاملة. إن من أهم أسباب الفشل في مشروع البحث هو الاكتفاء بتلك المعلومات التي يمكن الوصول إليها بسهولة والميل إلى الاقتناع بالحد الأدنى في جمع المعلومات. وتؤدي الرؤية التبسيطية والميل إلى تجنب المشاق والحرص على سرعة العمل، إلى الحول دون بذل الباحث جهدًا واسعًا في جمع الحد الأقصى من المعلومات، ويدفعه ذلك إلى إصدار تعميمات غير مبررة واستنتاج معطيات كلية عبر مقدمات هزيلة ومعلومات ناقصة.

يتصل تكامل المعلومات وكفايتها بمحور البحث والفرضية التي يقوم عليها، فعلى سبيل المثال يقول أحد الباحثين في حديثه عن الفارق بين علم الكلام التقليدي وعلم الكلام الجديد:"إن علم الكلام التقليدي يقتصر على تناول القضايا الدينية المهمة التي تحكي الواقع. أما الكلام الجديد فهو يهتم بشتى القضايا الدينية". من الواضح هنا ان الحكم الذي يصدره الباحث خاضع للمعلومات الناقصة التي توافرت لديه واضطرته إلى ملاحظة مجموعة محددة من الأعمال الكلامية فقط وهي تلك الأعمال الشيعية التي دونت في القرن السابع الهجري وحسب.

لو توافر المزيد من المعلومات لدى الباحث لأدرك مثلًا أن موضوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان من المقولات المهمة عند المعتزلة والإمامية في حقبة من تاريخ علم الكلام[10]، رغم انه ليس من القضايا الدينية التي تحكي الواقع.

وحين يأخذ الباحث بدراسة إبداعات صدر المتألهين، فإن المعلومات التي يحتاجها تمثل دائرة واسعة، لأن إصدار أحكام فيما يتعلق بذلك سيكون تبسيطًا ساذجًا لو لم يقم الباحث باستقصاء الفكر الفلسفي قبل صدر المتألهين (المتوفى عام 1051)، وسيغدو الباحث كحاطب ليل.

إن الجهل بالقدر الكافي من المعلومات، يؤدي احيانًا إلى دخول موضوعات لا يمكن تناولها عبر جهد شخصي، في رسائل الماجستير والدكتوراه ومختلف مشاريع البحث، الأمر الذي يؤدي إلى إخفاق البحث وعقمه. بينما نجد أن الحرص على ان تكون المعلومات بالقدر الوافي سيجنب البحث الوقوع في التسطيح والتبسيط ويتفادى صدور أحكام متعسفة تنشأ عن عدم الاطلاع.

---

[10] – لمزيد من الاطلاع فيما يتصل بهذا النموذج لاحظ: قراملكي: أحد فرامرز. هندسه معرفتى كلام جديد (الهندسة المعرفية لعلم الكلام الجديد) طهران، مؤسسه فرهنگي دانش وأنديشه معاصر، 1378، ص129-133.

وفي نموذج آخر نلاحظ أن بعض الباحثين يرى أن العلماء المسلمين ومنذ تُرجمت أعمال أرسطو حتى اليوم، لم يستوعبوا المفاهيم اللامحصلة بشكل صحيح. غير أن هذا الباحث اقتصر في تتبعه على الآراء التي كان يتيسر له الإطلاع عليها دون عناء، بينما لا يمكن ممارسة القراءة والتحليل في موضوع كهذا إلا من خلال جمع معلومات واسعة للغاية ومتابعة الكتب المخطوطة التي لم تطبع بعد. لقد بادر الباحث المذكور إلى إعادة النظر في عمله وتلافى النقص في معلومات بحثه، بعد الملاحظة التي سجلها كاتب السطور[11].

### د: صدق المعلومات

يمثل صدق المعلومات واحدًا من معايير عملية انتقاء المعلومة وفرزها. إذ أن المعلومات الخاطئة التي لا تمثل سوى تخمينًا جزافيًا، تؤدي إلى عقم البحث. وقد أثير هذا الموضوع في إطار التمييز بين المعلومات والبيانات الخام التي لم تخضع إلى عملية فرز. ونتولى تفصيلها فيما يلي تنبيهًا على حجم أهميتها.

لا بد للباحث أن يختبر درجة الصدق في المعلومات بواسطة الأدوات المتعارف عليها في مجاله. وحيث ان النتيجة تتبع (أخسّ) المقدمات، فإن وجود مقدمة كاذبة أو مقدمة لم يتأكد صدقها، يؤدي إلى الشك في نتيجة الدليل.

يمكن طبعًا من وجهة نظر المناطقة، أن تظهر في عملية التفكير نتيجة صادقة من مقدمات كاذبة على نحو الصدفة. ولكن نلاحظ أولًا أن كذب المقدمات في النماذج التي جرى تناولها تفصيليًا في كتب المنطق، يؤدي حتمًا إلى كذب النتائج[12]، ونجد ثانيًا أن صدق المقدمات هو المقياس الذي يتاح للبحث المنظم على ضوئه، أن يكتسب مواصفات الجهد العلمي.

ويرى الحكماء في هذا السياق، على مستوى المبدأ لا المستوى العملي طبعًا، أن صدق المقدمات يتمتع بطابع الضرورة. حيث يسمى الاعتقاد الذي هو صادق فقط، بالقول الجازم أو الاعتقاد *(believe)*. أما الصدق الضروري فهو اعتقاد صادق ثابت مطابق للواقع ويسمى علمًا *(knowledge)*[13]. ويؤكد الفلاسفة أنهم يريدون بصدق المقدمات في البحث الفلسفي، الصدق الضروري والتصديق العلمي، وبالتالي فإن البرهان هو المنهج الوحيد في أبحاث الفلسفة، وهم يميزون بين البرهان والجدل والخطابة وسائر الصناعات الأخرى في المنطق.

### هـ: الدقة في المعلومات

---

[11] – راجع: قراملكي، أحد فرامرز. مفاهيم غير محصل ومنطق ماهيات: تأملي در مقاله قضيه معدوله ومحصله. مجلة مقالات وبررسيها. ع62، 1376. ص161-171. وكذلك: تبكيت بيرونى آفت گفتگوي اثر بخش. (الإفحام من خارج الدائرة يقوض الحوار المثمر). مقالات وبررسيها، ع68، 1379، ص323-327.

[12] – الحلي، العلامة الحسن بن المطهر. الجوهر النضيد. قم، انتشارات بيدار. 1363، ص180.

[13] – ابن سينا. الاشارات والتنبيهات. (مع شرح المحقق الطوسي). تهران، انتشارات آرمان. 1403هـ. ج1، ص 13. وسنشير الى هذا المصدر في الإحالات القادمة ب"الطوسي، شرح الإشارات".

إلى جانب صدق المقدمات لا بد من توافر الدقة فيها كذلك كشرط في تحقق جدوى البحث. غالبًا ما يكون صدق المعلومة هو النقطة المهمة في لغة التفاهم العرفي، أما في اللغة العلمية فإن دقة المعلومات تلعب دورًا أساسيًا. إن قولنا :"تبلغ المسافة بين مدينتي طهران وتبريز 600 كم" لن يصلح للدخول بوصفه معلومة في بحث علمي، رغم إننا نتقبل ذلك ونكتفي به في لغة العرف. ويؤدي غياب الدقة أحيانًا إلى تجريد المعلومة من صدقها، ومن أهم الأمثلة على هذا، ذلك الخطأ الذي يدعى عند علماء المنطق المسلمين بـ "مغالطة سوء اعتبار الحمل".

حين نلاحظ مثلًا قولهم :"أن أبا الحسن العامري هو أول فيلسوف تناول موضوع اتحاد العاقل والمعقول"، نجد انه تعبير غير دقيق وغير صادق، يعكس حقيقة صحيحة هي :" أن أبا الحسن العامري هو أول فيلسوف مسلم تناول في كتبه موضوع اتحاد العاقل والمعقول". وينتج غياب الدقة عن التعميم في القول وتجاهل القيود التي تتضمنها أجزاء النص.

### و: الوضوح والتحديد في المعلومات

تتطلب دقة النص تجريد معلومات البحث عن أي لون من الغموض. وسواء كان الغموض على مستوى المفهوم والذهن أم المصداق والواقع، فإنه يحول دون أن تلعب المعلومات دورها المفترض.

يمكن أن تعاني معلومات البحث غموضًا بأنماط ثلاثة، فثمة الغموض في اللغة، والغموض في الدلالة، والغموض في المصداق. يتصل الأول باللغة ومفرداتها، والثاني بالذهن والتصورات، أما القسم الثالث فهو ذو صلة بالمصاديق والواقع الموضوعي.

والغموض على مستوى اللغة يعود إلى وعورة في النص ووجود ألفاظ وعبارات متعددة المعنى[14]، من قبيل كلمة (شير) في الفارسية[15]. وهذا اللون من الغموض يدعى الاشتراك اللفظي، أما في العبارات والجمل فهو ما يعرف بـ (المماراة).

هنالك ثلاثة مستويات للاشتراك اللفظي:

أولًا: المستوى الواضح من الاشتراك اللفظي، وهو ما ينشأ عن ازدواج في أساس الدلالة اللفظية وبنيتها أو في صيغتها الصرفية. وغالبًا ما يكون هذا اللون من الاشتراك واضحًا لا يتسبب في تشويه الدلالة أو تشتتها[16].

ثانيًا: مستوى الاشتراك الخفي في اللفظ، مما يعود إلى استخدام مفردةٍ ما على أنحاء مختلفة في حقول علمية متنوعة. يمكن أن تكون هنالك كلمة لا تنطوي على غموض في بنائها اللغوي، غير أن العلماء يستخدمونها في

---

[14] – للاطلاع على نماذج من الغموض الدلالي والاستخدامات المزدوجة يراجع: خرمشاهي، بهاء الدين. سير بي سلوك (سير دون سلوك). تهران، انتشارات معين، 1370، ص455-511.

[15] – تدل كلمة (شير) في الفارسية على الأسد والحليب وصنبور الماء...الخ.

[16] – يورد المؤلف عدة امثلة على هذا المستوى من الاشتراك اللفظي، وحيث انها امثلة من اللغة الفارسية فإن ترجمتها لن تحقق الهدف المطلوب من المثال. ثمة الكثير من الأمثلة على ذلك في اللغة العربية نظير استخدامات كلمة العين وغيرها من المشتركات الكثيرة، وأحجم عن إيراد تلك الأمثلة لوضوحها. (المترجم).

مجالات مختلفة لدلالات متعددة، من قبيل مفردة "الحد" التي لا تنطق بدلالة واحدة في الجغرافيا والفقه والرياضيات والمنطق. يمكن إلى حدٍ ما، الانتباه إلى هذا النمط من الاشتراك اللفظي وتجنب الخلط بين دلالاته، فلو قيل مثلًا :"أن للإنسان حدًا، وكل ما له حد فهو خطيئة، فالإنسان خطيئة". سندرك بقليل من التدبر الدلالة المزدوجة لمفردة الحد، حيث استخدمت في الشطر الأول للدلالة على أحد أنواع التعريف المنطقي فالحد هناك في مقابل الرسم. بينما قصد بالحد في الشطر الثاني العقوبة الشرعية كمصطلح في الفقه مقابل التعزير، الأمر الذي أدى إلى عدم تكرر الحد الأوسط في الدليل.

ثالثًا: المستوى الأكثر خفاءً في الاشتراك اللفظي، وهو أن تكتسب المفردة معاني متباينة في حقل علمي واحد. والمثال الأبرز على ذلك مصطلح "الذاتي" في الأعمال الفلسفية، حيث حاول معظم علماء المنطق تحديد استخداماته المتنوعة، منذ كتاب "الملخص" للفخر الرازي حتى اليوم[17].

رغم كل هذا الحرص على تحديد دلالة الكلمة المذكورة وما حظيت به من اهتمام تاريخي، نجد المحقق الشهير الشريف الجرجاني (740-816 هـ) وهو الموصوف بالدقة في النظر، يقع في فخ هذا المصطلح في إطار الرد على نظرية القبح والحسن الذاتيين، وحيث انه لم يتنبه إلى ما تنطوي عليه دلالة المصطلح هذا من غموض، فإنه لم يجد خللًا أو ثغرة في الدليل التالي:

الدليل رقم (1): صغرى للدليل: الحسن والقبح مما يقع فيه الخلاف.

كبرى للدليل: والذاتي لا يقع فيه خلاف.

النتيجة: إن الحسن والقبح ليسا بذاتيين.

وهذا الدليل للقاضي عضد الدين الإيجي (المتوفى عام 756 هـ)[18]، وقد قرره الجرجاني دون أي تدقيق أو نقد[19]. والخلل في هذا الدليل هو عدم تكرر الحد الأكبر بمعنى واحد في الكبرى والنتيجة، الأمر الذي يعود إلى غياب الدقة في المعلومات وعدم كونها مناسبة للموضوع. إن الدقة تتطلب أن نتجنب في دليل كهذا، استخدام عبارة "الذاتي لا يقع فيه خلاف".

نلاحظ أن الكتب الدراسية في المنطق تورد فيما يتصل بموضوع الاشتراك اللفظي، أمثلة من المستوى الواضح للاشتراك، وهو ما أدى إلى تصور البعض أن قليلًا من التدبر سيكون كافيًا لتحديد الاشتراك وتفادي الخطأ. بينما ندرك عبر مراجعة تاريخ الأفكار في مجالات الفلسفة وعلم الكلام والعلوم الاجتماعية...الخ، أن ثمة نماذج مهمة من أفخاخ الاشتراك اللفظي التي وقع فيها أبرز العلماء.

---

[17] – قراملكي، أحد فرامرز. موضوع كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية. مجلة مقالات وبررسيها، ع53-54. 1371-1372. ص141-142، وص123-158.

[18] – الإيجي، القاضي عضد الدين. المواقف. بيروت، عالم الكتب، ب. ت. ص325.

[19] – الجرجاني، مير سيد شريف. شرح المواقف. مصر، مطبعة السعادة، 1325 هـ. ج8. ص188-189.

يتطلب تفادي ذلك دقة بالغة متواصلة، على نحو يتيح للمرء أن يتوغل في ما وراء الكلمة الواحدة واللفظ المشترك المؤدي إلى الخطأ، ليهتم بتفاوت المفاهيم واختلاف الأشياء.

والمثال الآخر في موضوعنا هو دليل الفلاسفة المعروف على قاعدة :"إن كل حادث مسبوق بمادة ومدة" حيث غالبًا ما يستدلون عليها بالشكل التالي[20]:

الدليل رقم (2):

المقدمة الأولى: إن الحادث هو ممكن الوجود قبل وجوده، لأنه لا يمكن أن يكون واجبًا أو ممتنعًا.

المقدمة الثانية: والإمكان أمر موضوعي واقعي لأنه قابل للشدة والضعف.

المقدمة الثالثة: الإمكان عرض لا جوهر.

النتيجة: لا بد أن يكون ثمة جوهر يتقوم به الإمكان، وهو المادة.

وكما نبه بعض الباحثين فإن الحد الأوسط لم يتكرر في هذا الاستدلال على نحو دقيق، لأن الإمكان في المقدمة الأولى قصد به الإمكان الذاتي وهو أمر اعتباري انتزاعي يستخدم في مقابل الوجوب والامتناع. بينما أُريد بالإمكان في المقدمة الثانية الإمكان الاستعدادي[21]. وفي ضوء ذلك تتطلب الدقة أن لا نستخدم المقدمة الأولى في هذا الدليل.

إن المستويات الثلاثة للاشتراك اللفظي (الواضح، والخفي، والأكثر خفاءً) تتصل بالغموض في إطار اللغة والألفاظ، غير أن ثمة مستوى أبعد من ذلك يتصل بالمفاهيم والتصورات الذهنية. حيث ان هنالك العديد من المفاهيم التي تدخل في البحث بكل ما تتضمن من غموض وعدم تحديد يميزها عن سواها من المفاهيم. وحينئذ لن تكون النتيجة سوى ذلك الغموض. إن الغموض في المفهوم هو تلك القضية التي نعتبر ديكارت (1596-1650) رائدًا في مواجهتها.

أما النمط الثالث من الغموض فهو يتصل بالواقع الموضوعي، وهو ما يقع من خلط بين مصاديق المفهوم الواحد. إذ نجد في بعض الأحيان أن اللفظ واضح لا غموض فيه، كما أن المفهوم محدد، غير أن ثمة غموضًا في تحديد المصداق، أي أننا نخفق في تمييز مصاديق ذلك المفهوم عن سواها. يعتقد علماء المنطق مثلًا أن مفهوم الخبر يتسم بالوضوح، غير أننا غالبًا ما نخفق على مستوى المصداق، في التمييز بين عبارات الخبر والإنشاء.

وهكذا فإننا غالبًا ما نواجه خلال انتقائنا لمعلومات البحث، ثلاثة أنواع من الغموض، وتتطلب معالجة كل من هذه الأنواع أداة خاصة.

---

[20] – ذكر هذا الدليل كثير من الفلاسفة، لاحظ: ابن سينا، الشفاء، قسم الإلهيات، مراجعة وتقديم ابراهيم مدكور. القاهرة 1380هـ. ص177. وكذلك بهمنيار ابن المرزبان، التحصيل، تصحيح وتعليق مرتضى مطهري. طهران، دانشكده إلهيات ومعارف اسلامي، 1349. ص443-447. اضافة الى: صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الاسفار الاربعة. بيروت، 1981، ج1، ص135.

[21] – اليزدي، محمد تقي مصباح. تعليقة على نهاية الحكمة. قم ، مؤسسة في طريق الحق. 1405هـ. ص284.

فشرح الاسم أو السؤال عن معنى اللفظ *(meaning)* يكفل لنا تخطي الغموض اللغوي والاشتراك اللفظي. كما أن التعريف *(definition)* يعالج الغموض على المستوى المفهومي التصوري، بينما يعمل كل من تحليل المفهوم *(conceptual analysis)* وتحليل القضية *(propotional analysis)* على معالجة الغموض في مستوى اللغة ومستوى المفهوم معًا. أما معيار التمييز *(criteria)* فهو يعالج الغموض في مستوى المصداق.

**ز: معلومات حديثة**

يتسم العلم بأنه كينونة تدريجية، وتظهر كل يوم فكرة جديدة ومنهج مستحدث وقضايا تطرح لأول مرة. ليس في وسع الباحث أن يقتصر على المعلومات القديمة فهي احيانًا تصبح بلا قيمة، كما أن المعلومة الجديدة في بعض الحالات تضفي دقة أكبر على المعلومة السابقة. واليوم يواجهنا ذلك أكثر من أي أمر آخر، في أبحاث علم الكلام، إذ أن المعلومات التي يوفرها علم الكلام التقليدي لم تعد كافية رغم أهميتها، ذلك انه لا يمكن للمرء تحقيق شيء دون الإحاطة بالجديد من القضايا والأسس. إن الثغرة الأكثر أهمية اليوم في أبحاث علم الأخلاق (لا فلسفة الأخلاق) تتمثل بغياب المعلومات الحديثة فيما يتصل بالمهن والأعمال، الأمر الذي يفسر عدم توفر أبحاث تستحق الطرح في مجال الأخلاق المهنية *(Professional Ethics)* على نحو يناسب مجتمعنا.

**ح: معلومات موثقة**

يشترط في انتقاء المعلومات واستخدامها في البحث، أن تتمتع بقيمة توثيقية تدعمها، حيث أن تجاهل هذا الجانب يؤدي إلى تسرب معلومات خاطئة وناقصة لا قيمة لها، إلى البحث، وهو ما يتسبب بالتالي في عقم البحث. وهكذا فإن من مسؤوليات الباحث الرئيسية الوصول إلى المصدر الأصلي للمعلومة ونقد الوثائق التي تدعمها.

:"إن الخطوة الأولى في البحث الموضوعي هي النظر في المصادر والرجوع إلى سائر المواطن التي يحتمل أنها تناولت ما يدور حوله البحث من موضوعات. لأن البحث لون من الدليل المنطقي وكلما استعان الباحث بمراجع أكثر، كلما كانت حجته أقوى واستقراؤه أكمل. بيد أن البحث في المصادر يتطلب دقة وسعة صدر، وكثيرًا ما عانى كبار الباحثين الأمرّين في محاولة للعثور على كتاب نادر، يحدوهم إلى ذلك ولعهم بالبحث. تحمل أبو ريحان البيروني (326-440) المشاق أربعين عامًا بحثًا عن كتاب ماني "سفر الأسفار" حتى عثر عليه، كما بذل حنين بن إسحاق (194-263) جهودًا كبيرة في سبيل الحصول على بعض كتب جالينوس[22].

[22] – زرين كوب، عبد الحسين. يادداشتها و انديشه ها (ملاحظات وأفكار). تهران، انتشارات اساطير، 1371، ص14.

ليس العنصر الكمي أو العددي مقياسًا في العودة إلى المراجع والاهتمام بالوثائق العلمية، بل يتمثل المعيار الأكثر أهمية بتوفر عنصري"الأصالة" في المراجع و"الأمانة" في النقل. حيث لا ينبغي للباحث أن يسيء استخدام مصادره ووثائقه ولا يحق له أن يلفق من خلالها إشكالية زائفة، على حد تعبير المرحوم زرين كوب[23].

يؤدي استيعاب أهمية الوثائق في عملية البحث، إلى تفادي صدور أحكام متعسفة تنشأ عن عدم الإطلاع، حيث سيتخلى الباحث عن جرأته وتساهله حين يدرك حجم الوثائق والمخطوطات التي عليه أن يعود إليها حين يكون في صدد التدليل على إبداع العلامة الطباطبائي مثلًا في موضوع فلسفي معين. كما نجد شخصًا مهووسًا بالبحث في أعمال شيخ الإشراق ومدى تأثره بأفلاطون مع انه لا يتقن اللغات الأجنبية، وهذا في حقيقة الأمر لم يستوعب أهمية الوثائق العلمية في إعداد البحث. إن عناوين الأبحاث قد تشي بهذا النقص على نحو واضح احيانًا، من قبيل موضوع اقترحه بعض الدارسين لرسالة ماجستير ينوي إعدادها حيث اختار لها عنوان "الجوهر والعرض عند الشرقيين والغربيين".

تتمثل المرحلة الأكثر صعوبة في البحث، بجمع ما يتطلبه من الوثائق والمراجع الأصلية المعتد بها على نحو كافٍ، الأمر الذي يمكن أن لا يتاح للبحث نتيجة للتساهل والحرص على السرعة والميل إلى تجنب المشاق والتعويل أكثر مما ينبغي على الذاكرة إضافة إلى عدم تلقي الباحث لتعليم يسبق مزاولته للبحث. إن التسرع هو الخطأ الذي يقع فيه الباحثون الشباب، كما أن الباحث المحترف بالطبع ربما فقد رصانته العلمية وسمعته بسبب وقوعه في خطأ لا يغتفر. ومن جهة أخرى نلاحظ أن ميل الباحث إلى الدعة والراحة يحولان بينه وبين ما ينبغي ممارسته من نقد ودراسة دقيقة للوثائق.

ينوه المرحوم زرين كوب إلى أن التعويل على الذاكرة هو فخ يقع فيه الباحثون، ومن هنا كان كبار الباحثين في العالم يحذرون من ذلك. يقول المرحوم القزويني: ((عندما أريد الاستشهاد بآية من الكتاب في بعض أبحاثي فإنني أعود إلى القرآن كي أتثبت منها، حتى لو كانت آية [قل هو الله احد][24]. لقد لاحظت خلال مراجعتي تحقيقًا أجراه أحدهم لبعض النصوص، نموذجًا بارزًا للوقوع في ذلك الفخ والتعويل على الذاكرة. إذ أنه تولى تحقيق نص فلسفي – عرفاني وتوفرت لديه نسخة من النص بخط المؤلف، مما دفعه إلى عدم مراجعة النسخ الأخرى وعدم استخدام مناهج التحقيق ومقابلة النصوص وتقييمها. بينما كان المؤلف يعتمد على ذاكرته في إيراد الآيات القرآنية وقد أوقعه ذلك في بعض الاخطاء، غير أن محقق النص لم يأخذ احتمال الخطأ هذا بعين الاعتبار وفاتته حالات متعددة من ذلك.

وفي ضوء المقاييس المذكورة، يحتاج الباحث إلى الدقة أكثر من أي شيء آخر في عملية انتقاء المعلومات. وهذه الدقة تكون عرضة للخطر نتيجة لعاملين أساسيين: التسرع والغرور. وغالبًا ما يعاني الباحثون الشباب من تأثير العامل الأول، بينما يخضع الباحث الشهير ذو الخبرة الطويلة، إلى تأثير العامل الآخر. ويسجل المرحوم زرين كوب

---

[23] – م. ن، ص15.

[24] – الأخلاص1.

ملاحظة مفيدة في تفسيره لهذين العاملين. يقول:"إن غياب الدقة ناشئ عن التسرع، وهذا ما يمثل مشكلة كبيرة في البحث كثيرًا ما أدت إلى وقوع أخطاء فظيعة. يمكن أن يتورط الباحث في خطأ كبير نتيجة للتشابه بين اسمين مثلًا، مما في وسع المرء أن يتفاداه بشيء من الدقة. كثيرًا ما نجد أن التعويل على معلومة منقولة يؤدي إلى تضليل الباحث الساذج ويورطه في الخطأ. وربما افتقد البحث الدقة اللازمة في كثير من الحالات، نتيجة لتعويل الباحث على ذاكرته لفرط غروره وإعجابه بنفسه"[25].

**ط: عدم توفر المعلومات، معلومة في حد ذاته**

لا يمكن الاقتصار على ما هو متوفر من المعلومات خلال عملية جمعها، بل لا بد أن نهتم كذلك بما هو غير متوفر. وهذا من الفوارق بين البيانات والمعلومات. ذلك أن عدم توفر البيانات سيتحول لدى الباحث عبر عملية التحليل، إلى معلومة مفيدة. وعلى سبيل المثال نلاحظ حين نتناول بالبحث الألغاز المنطقية في أعمال صدر المتألهين، انه لم يتحدث عن لغز الجذر الأصم أو المفارقة الكاذبة، ولكن علينا أن لا نتجاهل ذلك بل ينبغي أن نتعامل مع إعراض صدر المتألهين عن مناقشة ذلك اللغز، بوصفه معلومة مهمة نتولى تحليلها. وهكذا فيما يتصل بالمفهوم الذي بلوره العلماء للنبوة، حيث أن حرصنا على دراسة المحددات والعناصر التي لم يتضمنها تعريف النبوة، لا بد أن يتمتع بقدر من الأهمية يعادل حرصنا على دراسة العناصر التي يتكون منها ذلك التعريف.

وفي ضوء المبدأ الذي يقرر أن"عدم توفر المعلومات يمثل معلومة في حد ذاته" سيولي الباحث أهمية لغياب المعلومة أيضًا، ويأخذ في دراسة ما لم يقله الخبراء والمسكوت عنه في نصوصهم، كدراسته لما صرحوا به وما قالوه، بالمستوى ذاته.

وهكذا فإن المعلومات التي تستحق المشاركة في عملية البحث، تتحلى بتسع مواصفات

| مواصفات المعلومات المناسبة | |
|---|---|
| 1 | معلومات لا معطيات . |
| 2 | ذات صلة بالموضوع . |
| 3 | كافية ومتكاملة . |
| 4 | صادقة . |
| 5 | دقيقة . |
| 6 | واضحة ومحددة . |

[25] – م. ن، ص15.

| | |
|---|---|
| 7 | حديثة . |
| 8 | موثقة . |
| 9 | ان عدم توفر المعلومات، هو معلومة في حد ذاته . |

## 2- المعالجة

تمثل المعلومات بمواصفاتها المذكورة سابقًا، شرطًا ضروريًا في البحث. غير أن الشرط لا يكفي لوحده في تحقيق المشروط، فالبحث يبدأ منطلقًا من المعلومات لينتهي بالإبداع، وثمة مسار يمر به البحث وينتقل عبره من المعلومات إلى المعطيات الجديدة، وذلك هو معالجة المعلومات وتحليلها على أساس منهجي. حيث تتحول المعلومات إلى معطيات جديدة من خلال تحليل منهجي ومعالجة منظمة. ويقدم لنا فرانسيس بيكون (1561-1626) تصورًا تشبيهيًا معروفًا حول أهمية المعلومات ودور التحليل في البحث، فهو يقسم الباحثين إلى ثلاثة أصناف: الديدان، والعناكب، والنحل. ويمكن تعميم تصويره هذا عبر القول بأن أولئك الذين يعدون من الباحثين ينقسمون إلى أربعة مجموعات كما يلي:

يكون الباحثون في المجموعة الأولى بمثابة ديدان حيث يكتفون بجمع المعلومات وحسب، وعلى تقدير أنهم يمارسون لونًا من البحث فإنهم إنما يحولون البيانات إلى معلومات فقط. أما المجموعة الثانية فهم العناكب الذين يخوضون في المعالجة والتحليل دون جمع المعلومات ودون توفر رصيد معلوماتي، مما لن ينتج سوى تهويمات وترهات أو حديثًا لا أساس له على حد تعبير المرحوم زرين كوب. وفي المجموعة الثالثة نلاحظ النحل وهو يبدأ بجمع المعلومات أولًا ثم يقوم بتحويلها إلى عصارة علمية من خلال التحليل والتفكيك. ان تصوير بيكون يحدد بوضوح طبيعة الفرق بين نتيجة المعالجة والتحليل (العصارة)، ونتيجة جمع المعلومات.

أما المجموعة الرابعة فهي تشبه الذباب حيث تتجمع حول طاولة بحوث الآخرين وتأخذ في انتحال الأبحاث وتلويثها، ولكن ((ليس ثمة عاهة يبتلى بها الباحث أسوء من أن يعتاد سرقة أعمال الآخرين وانتحالها))[26]. يمكن أن تكون السرقات هذه على أشكال مختلفة ولها أسبابها المتعددة، من قبيل السرقة الصريحة *(plagiarism)* والسرقة المتخفية التي تقترن بالمكر والاحتيال *(paraphrase)* مما لسنا في صدد تناوله هنا.

لسنا هنا في صدد الحديث عن أبعاد السرقات تلك، بل نحاول التركيز على دورها في تشويه البحث. هنالك من ينتحل كتابًا علميًا كاملًا ويقدمه باسمه بوصفه رسالة ينال بها درجة الماجستير، وربما جاء احدهم بالكتاب ذاته وادعى انه له ايضًا ولكن بعد أن يجري عليه تغييرات لا تقوم على مبرر ويتصرف فيه بنحو عشوائي. ويختلف المثالان في أن الثاني أضاف إلى السرقة خطيئة أخلاقية أخرى حين شوه البحث المسروق وبعثره.

---

[26] – م. ن.

تحدث عمانوئيل كانط (1724-1804) عن العلاقة بين المشاهدة والقوة العاقلة[27]، ويمكن القول في ضوء تعبيراته هناك ان المعلومات حين تتجرد عن التحليل والمعالجة فإنها تكون حصيلة عقيمة لا طائل منها، كما ان المعالجة أو عملية التحليل عندما تفتقد الرصيد المعلوماتي فإنها تصبح جوفاء لا قيمة لها. ان معالجة المعلومات تمنحها دلالتها وجدواها، وإنما يتأكد دور الباحث من خلال ذلك وحسب. وللمعالجة هذه أربعة مستويات متباينة: التعريف، والوصف، والتبرير، والتفسير. وتقوم المعالجة وعملية التحليل في ضوء المستويات هذه، على شكل محدد من المناهج والأساليب والأدوات. وفيما يلي سنخصص حديثنا حول المناهج والأساليب هذه، الأمر الذي يدفعني إلى الاكتفاء بما قلته حتى الآن فيما يتصل بمعالجة المعلومات.

### 3- التنظيم

إن تحليل المعلومات الذي يمثل العنصر الأساسي في البحث، يعكس ما يتطلبه هذا من التنظيم والتحديد المنضبط. إذ أن البحث بوصفه عملية محددة، يمتلك اطارًا وضوابط وقواعد معينة. وما يميز البحث عن الدراسات المشتتة هو خضوعه لإطار منهجي عام، الأمر الذي يمثل أهم خصائصه.

يقول فرانسيس بيكون في الأرغانون الجديد مذكرًا:"إن الأعرج الذي يسير في طريق مستقيمة سيبلغ هدفه على نحو أسرع من ذلك العداء الذي ينتهج طريقًا متعرجة. بل إن الأخير سيضل طريقه بقدر ما يسرع في الحركة"[28].

إن الضوابط والتنظيم المناسب يحددان مسار البحث واتجاهه، وإنما يمكن ان تحظى نتائج البحث بترحيب الأوساط العلمية، فيما لو اعتمد الباحث المعايير والضوابط المتداولة المتعارف عليها *(well disciplined)*. ومن هنا كان نقد معايير البحث واحدًا من أساليب نقد البحث نفسه. وكمثال على ذلك فقد ظلت نظرية (أليس) بوصفها نتيجة بحثية مؤكدة فيما يتصل بالعلاقة بين الإيمان والسلامة النفسية، حتى عثر بيل واتسون على ثغرة في معايير البحث عند أليس[29].

رغم أن معايير البحث وتنظيمه يتسمان بالعمومية، بيد أن ذلك لا يتحرك في سياق التقليد أو الصياغات الجاهزة، بل يتحدد إلى حد كبير بما يقتضيه الموضوع وما تتطلبه مسألة البحث. حين نريد مثلًا أن

---

[27] – كانط، عمانوئيل. نقد عقل محض. ط2، ص75.

[28] – لاحظ:

*Bacon, Francis, The New Organon, ed. By fulton H. Andersen, New York, 1980, p.1,16,58-59.*

[29] – لاحظ:

*Watson, P. T. Morris, & Hood, R. W. , Religion and Rationality: Comparative analysis of rational- emotive and intrinsically rationalities, Journal of psychology and chrisitionaity, p. 3, 373-384.*

نؤرخ لأحد الفلاسفة ونحدد تاريخ ولادته، ففي وسعنا أن نستعين بنصوصه المكتوبة. غير أن الاستعانة بنصوص شاعر من طراز سعدي الشيرازي في تحديد تاريخ ميلاده، لن توفر لنا سوى الحيرة والغموض[30].

### 4- الاختصاص بنطاق محدد

ان اختصاص البحث بفرع علمي محدد يمثل المرتكز الرابع للمشروع البحثي. لا نستخدم مصطلح البحث في دراساتنا على نحو مطلق، بل غالبًا ما نستخدمه مضافًا لفرع من المعرفة البشرية فنقول: الأبحاث الفلسفية، أو الأبحاث الكلامية، أو النفسية، ...الخ. وهذا هو النطاق الذي يتحرك فيه البحث. إن السر في اختصاص البحث بواحد من العلوم يكمن في ان الممارسة البحثية لا تمثل سوى معالجة منهجية لمسألة محددة، وهذه تنتمي إلى واحد من الحقول العلمية. ومما تمتاز به المسألة العلمية عن الإشكالية هو أن المسألة أو القضية إنما تكون فلسفية أو سوسيولوجية...الخ.

ثمة آثار عديدة يتركها اختصاص البحث بنطاق محدد، على مشروع البحث برمته. فنجد أولًا إن البحث يتطلب مرانًا وتعليمًا مسبقًا يتلقاه الباحث، باعتبار أن البحث ذاته يتصل بحقل علمي محدد، ولا يمكن للمرء أن يخوض حقلًا علميًا ويتناوله بالبحث دون أن يتعلم ذلك الحقل. ومن هنا فإن في وسعنا أن نقيس حجم مؤهلات المرء للبحث في حقل معين، في ضوء تحديدنا لحجم الأخطاء التي ارتكبها عند استخدامه للمفاهيم العلمية ذات الصلة بذلك الحقل، وهو يحسب نفسه باحثًا خبيرًا فيه. إن البحث في علم معين يتطلب الإحاطة بمبادئه وموضوعاته ومناهجه وبنيته.

ونلاحظ ثانيًا ان اختصاص البحث بنطاق علمي محدد يعني صلته بتاريخ ذلك العلم، فحين يمارس المرء البحث في حقبة معينة من تاريخ العلم، سيعتمد على الموروث التاريخي والمنجزات السابقة، أي انه بحثه سيمثل تواصلًا لمسار الأبحاث السائد في ذلك العلم. ليس البحث العلمي شأنًا شخصيًا عديم الصلة بتاريخ العلم وتطوره، وهكذا فلا يمكن ان نغتفر للباحث جهله بما يدور في الأوساط العلمية.

ثالثًا: ان الاختصاص بعلم محدد سيفرض ضوابط البحث أيضًا ويضع معاييره، ذلك ان الأبحاث القرآنية مثلًا تتطلب التقيد بإطار هذا الحقل المعرفي ومناهجه المتداولة، ولا يتنافى ذلك كما ذكرنا سابقًا، مع الإبداع المنهجي للباحث.

رابعًا: إن اختصاص البحث بنطاق محدد، يعبر عن هوية العلم العامة. ولأهمية هذه النقطة فقد أدرجناها ضمن عناصر تعريفه.

لا بد ان نشير كذلك إلى ان اختصاص البحث بنطاق علمي محدد، لا يتنافى مع الدراسات البيتخصصية[31]. إذ ان اختصاص البحث بنطاق محدد لا يتعارض مع ما تتطلبه معالجة بعض الموضوعات من استعانة بعلوم متعددة.

---

[30] – موحد، ضياء. سعدي. تهران، طرح نو، 1373. ص33-44.

## 5- الهوية العامة

ذكرنا آنفًا ان اختصاص البحث بنطاق محدد يؤدي إلى تكوين هوية عامة للبحث، وهكذا فإن ذكر الهوية كعنصر في تعريف البحث لا يخلو من الزيادة والحشو، أي ان التذكير به يستهدف التنويه إليه وحسب، وذلك لغفلة البعض عنه. لا نريد بالهوية العامة هنا مجرد القول بأن البحث يتطلب جهدًا جماعيًا، وإنما نريد التأكيد على أن كل مشروع بحثي وفي ضوء اختصاصه بنطاق محدد، هو جزء من هوية العلم العامة يمتلك موقعه الخاص في مجموعة العلوم، وهو يلعب دورًا معينًا بوصفه عنصرًا في منظومة محددة وشبكة خاصة. ان أي بحث هو في حقيقة الأمر جزء من الممارسة العامة للباحثين في نطاق معين ضمن تاريخ العلم المأخوذ بنظر الاعتبار، كما انه يحتل نقطة في مسار تطور العلم هذا.

إن الاهتمام بهوية البحث العامة ينطوي على فوائد عدة: فهو أولًا يدفع الباحث إلى تكوين ملاحظة منهجية للعلم ويلعب دورًا رئيسًا في ذلك. كما انه يحول ثانيًا دون اقتصار الباحث على ملاحظة البنية والقواعد والمعايير المنطقية، فيتيح له ان يدرك ما وراء ذلك من تأثير متبادل بين البحث ونطاقه العلمي.

ليس في وسع المرء اليوم ان يمارس البحث على نحو فردي وبشكل منفصل تمامًا عن جهود الأوساط العلمية.

وعلى هذا الأساس يقول نيوتن: ((إذا كنت قد تقدمت [على غيري من العلماء] فلأنني كنت اعتلي مناكب العمالقة)). وهو يقصد بالعمالقة روادًا من طراز ديكارت وغاليليو وأمثالهم[32]. يمثل الباحثون في حقل معين في حقيقة الأمر، أعضاء في أسرة واحدة يتكفل كل منهم من خلال آصرة منهجية، بدور في حركة العلم العامة تاريخيًا.

ان اهتمام الباحث بالهوية العامة للبحث يؤدي به منذ بداية عمله، إلى العثور على موقع بحثه في مسار العلم المعني. حين نتساءل: أين موقع البحث الكذائي من جغرافيا العلم؟ فإن سؤالًا كهذا سيحدد لنا ضرورة البحث وراهنيته، أو يعكس عدم جدواه ويكشف لنا انه عمل مكرر اجتراري.

## 6- الإبداع

يمثل الإبداع أو الإضافة العلمية، أهم ما يميز البحث عن برامج التعليم أو الجهد التبشيري. فحين يهدف الأخيران إلى تعليم المعطيات العلمية وإشاعتها، يحاول البحث ان ينتج المعرفة العلمية. ان الباحث في صدد اكتشاف أمر لم يجر اكتشافه بعد.

---

[31] – ذكرنا في هامش سابق ان المؤلف يستخدم تعبير (ميان رشته اى) كمعادل فارسي للمصطلح الانجليزي *Interdisciplinary* وهو وصف لمنهج في البحث او لنوع من الدراسات. ويستخدم بعض الأكاديميين تعبير (بينية التخصصات) في الدلالة على ذلك. وهذا نظير كلمة *Multi disciplinary* = متعدد التخصص. يقال مثلًا ان الجامعة الكذائية تتميز بتعدد التخصصات. ولعل من المناسب هنا اجتراح مصطلح (بيتخصصي) على غرار *Intersubjective* التي تترجم إلى بيذاتي، وهكذا (بينصّي) وسواها. (المترجم).

[32] – برث، ادفين آرثر. مبادى ما بعد الطبيعي علوم نوين (ميتافيزيقيا العلم الحديث). ترجمة عبد الكريم سروش. تهران، شركت انتشارات علمي وفرهنگي، 1366، ص302.

ثمة جوانب متعددة للإبداع، فحصيلة البحث تكون تارة صياغة سؤال جديد وقضية مستحدثة، بينما يتمخض تارة أخرى عن نظرية جديدة، ويتمثل الإبداع في البحث ثالثة بما يؤسسه من منهج جديد. ونعني بالإبداع في بعض الحالات بناء مفهوم جديد، ويهدف البحث في حالات أخرى إلى بلورة مفهوم مستحدث في ضوء مفاهيم مسبقة. إن البحث في حقيقة الأمر مرحلة في السياق التطوري لذلك النطاق الذي يتحرك فيه، مما يعني ان الفرق بين البحث والبرنامج التعليمي هو الفرق ذاته بين الإنتاج والتوزيع أو النقل.

ثمة نقطة غامضة فيما يتصل باستخدامنا للإبداع عنصرًا في تعريف البحث، وهي تتطلب ان نحدد مقياس الإبداع ومعياره. إن الجدة أو الحداثة مفهوم نسبي، فحين نتحدث عن جدة الشيء وحداثته يمكن أن نتساءل: على أي أساس حكمنا بجدته، ومن أي زاوية ومقارنةً بأي الأشياء، قلنا بحداثته؟ ما هو المعيار في جدة نتائج البحث؟ من المؤكد ان الأشخاص ليسوا مقياسًا في تحديد ذلك، ذلك أننا نجد خلال العملية التربوية أو التعليمية ان المتدرب أو الطالب يكتشف أفكارًا جديدة وتتكون لديه قناعات جديدة. ولكن في وسعنا ان نقدم إجابة حيال السؤال هذا من خلال العنصرين الرابع والخامس في تعريف البحث. ان معيار الجدة هو النطاق الذي يتحرك فيه البحث، أي انه ينبغي ان يكون البحث قد جاءنا بجديد ضمن مسار العلم العام والتاريخي.

وعلى هذا الأساس يتسم البحث بالتعقيد والصعوبة، ويحتاج الباحث إلى معلومات دقيقة حول آخر ما تضمنته الأبحاث في مجال تخصصه. وعند هذه النقطة بالذات يتضح لنا ما يعانيه البحث المعاصر في مجالي علم الكلام وفلسفة الدين، من أزمة جعلت الباحثين في الغالب أقرب إلى مترجمي النظريات المتداولة وشارحيها، منهم إلى من ينتج نظرية جديدة.

ندرك في ضوء ما يعنيه الإبداع وما يمثله من ضرورة في البحث، أننا نستخدم مصطلح البحث بتساهل شديد ونخلع هذه الصفة بسخاء كبير على الأعمال الاجترارية، كما نعد من البحث، كتابات تبشيرية دِعائية وتعليمية أو ما كان من الموسوعات ونحو ذلك. لو توفرت حقًا مواصفات البحث وأعني هنا تحقق المنجز الإبداعي، في عدد قليل من الأعمال التي تعد اليوم من البحوث، لما بقي حالنا على ما هو عليه. إن أوهام المرء حول مستوى البحث، حجاب يخفي وراءه الوضع المزري للأبحاث وعقمها وافتقادها لمعطيات إبداعية، الأمر الذي يولد شعورًا زائفًا بالرضا.

نجد ان معظم الأبحاث لا تتجه نحو مسألة بحثية *(Problem Oriented)*، مما يمثل واحدًا من أسباب تحويل البحث إلى برنامج تعليمي أو الحؤول دون إنتاجية البحث بكلمة أخرى. نتوقع أن يتولى البحث طرح موضوعات جديدة أو أن يقوم بمعالجة موضوعات لم تخضع للمعالجة سابقًا، أو أن يقدم طريقة جديدة في اكتشاف الموضوع ومعالجته. لكن البحث حين يرتهن بموضوع محوري *(Subject Oriented)* فإن الباحث سيظل يدور حول الموضوع ويجمع شتى الكلمات والأقوال غثة وسمينة وسواء كانت لها صلة بالموضوع أم لا. لن يؤدي ذلك إلى تعويق الإبداع وحسب، بل ان دوران الباحث ولهاثه المتزايد سيضاعف من حيرته وتشتته. وسنتناول هذا الأمر على نحو موسع في الفصل الرابع.

وتأسيسًا على ما مضى فإن البحث يتقوم بستة مرتكزات أساسية، ويؤدي اختلال كل منها إلى تشويهه. يتضمن الجدول التالي تلك المرتكزات الستة.

| مقومات البحث ومرتكزاته | |
|---|---|
| 1 | المعلومات . |
| 2 | المعالجة والتحليل . |
| 3 | التنظيم . |
| 4 | الإختصاص بنطاق محدد . |
| 5 | الهوية العامة . |
| 6 | الإبداع . |